الصراع العثماني الصفوي في عهد الشاه طهماسب الأول 1524–1576

The Ottoman-Safavid conflict during the reign of Shah Tahmasp I 1524-1576

د. حمزة عيجولي

جامعة الجزائر 2، hamza.aidjouli@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2021/10/26 **تاريخ القبول**: 01 /2022/02

ملخص:

يعد الصراع العثماني الفارسي الذي دام عدة قرون، موضوعا هاما من مواضيع تاريخ العلاقات الدولية في العصر الحديث، حيث أن الدولة الصفوية التي حكمت بلاد فارس بين سنتي 1501و 1736ميلادي، قد دخلت في صدام وتنافس مع جيرانها العثمانيين بفعل عدة عوامل وأسباب متداخلة سياسيا واقتصاديا ومذهبيا وعرقيا، وقد كان الصدام الأول بين القوتين في عهد الشاه إسماعيل الأول 1501–1524م، وابنه الذي خلفه من بعده الشاه طهماسب الأول 1524–1576م الذي واصل على نهج والده في الصراع مع تبنيه في بعض الأحيان لمبدأ الصلح والحوار مع الجار العثماني الغريم.

الكلمات الدالة: الدولة العثمانية، الدولة الصفوية، معاهدة أماسيا ، الشاه طهماسب.

Abstract:

The Ottoman-Persian conflict, which lasted for several centuries, is an important topic in the history of international relations in the modern era, as the Safavid state, which ruled Persia between 1501 and 1736 AD, entered into a clash and competed with its Ottoman neighbors due to several factors and overlapping political, economic, sectarian and ethnic factors. The first clash between the two powers was during the reign of Shah Ismail I 1501-1524 AD, and his son who was succeeded by Shah Tahmasp I 1524-1576, who continued his father's approach in the struggle with his adoption at times of the principle of peace and dialogue with the rival Ottoman neighbor.

Keywords: The Ottoman Empire, the Safavid State, the Treaty of Amasya, Shah Tahmasp.

1. مقدمة:

تأسست الدولة الصفوية في إيران سنة 1501 ميلادي على يد الشاه إسماعيل الصفوي الذي استطاع أن يحول موروث أسرته الديني ومكانتها الروحية والاجتماعية في الهضبة الإيرانية، إلى كيان سياسي قائم بذاته سمي منذ ذلك الحين بالدولة الصفوية نسبة إلى الشيخ الأول للسلالة صفي الدين إسحاق الأردبيلي650 هـ=1252م/735هـ=1334م.

لتدخل الدولة الناشئة في صراع مستمر مع الامبراطورية العثمانية دام قرنين من الزمن، حيث أن العلاقات بين القوتين الجارتين قد طبعت بالصراع والمواجهة والتنافس الإقليمي، وقد كانت فاتحة المواجهات العسكرية بين الطرفين هي معركة جالديران سنة 1514م، التي تفوق فيها العثمانيون عسكريا عن الصفويين، والتي اعتبرت نكسة عسكرية للشاه إسماعيل الأول الصفوي، والذي بوفاته خلفه ابنه الشاه طهماسب الأول الذي حكم بين سنتي 1524 و1576 ميلادي، فكانت فترة حكمهما المرحلة المؤسسة للصراع العثماني الفارسي.

حيث صار تاريخ قيام حرب جالديران سنة 1514 م، حدا زمنيا يعبر به عن بداية الصراع العثماني الفارسي الذي استمر في معنى التنافس والعداء التقليدي إلى غاية سقوط الدولة العثمانية سنة 1923 ميلادي، وقد كانت أعنف المواجهات بين الطرفين عسكريا وأكثرها تعقيدا مذهبيا وقوميا وسياسيا خلال قرني وجود الدولة الصفوية وحكمها للهضبة الإيرانية بين سنتي 1501 و1736 ميلادي .

2. تطورات الصراع في عهد الشاه طهماسب الأول 1576/1524.

لم تنه وفاة الشاه إسماعيل الأول سنة 1524م والسلطان سليم الأول سنة 1520م، الصراع بين القوتين العثمانية والصفوية رغم فترة الهدوء التي أعقبت ذلك، فقد تسلم الحكم في إيران الشاه طهماسب 1576/1524م[1]، وتسلم عرش السلطة العثمانية سليمان القانوني 1566/1520م.

أخذت المشاكل تدب مجددا على الحدود العثمانية الصفوية في فترة مبكرة من حكم طهماسب ويعود سبب ذلك إلى أن هذا الأخير قد تسلم الحكم وسنه لا يتجاوز 12 عاما، فكان واقعا تحت نفوذ الأمراء القزلباش وهم قادة الجيش الصفوي الذين حاولوا استعادة ما ضاع منهم من أقاليم بفعل التوسعات العثمانية[2]، إضافة إلى أن للشاه الجديد في حد ذاته طموحات سياسية كبيرة حيث بدأ بتنظيم جبهته الداخلية من خلال إعادة التوازن بين أجنحة السلطة داخل الدولة حيث عزز نفوذ المؤسسة الدينية لتكون بمثابة المعين له من الازدياد المفرط لنفوذ القادة القزلباش، أما على صعيد الجبهة الخارجية فيعد عصر الشاه طهماسب الأول امتدادا لعصر والده الشاه إسماعيل من حيث تواصل الصراع مع المعسكر العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني[3].

هذا الأخير أبدى تخوفا كبيرا من الشاه الجديد فسارع إلى إبرام معاهدات عديدة مع دول وإمارات أوربا حتى يكون على أتم استعداد لأي خطر داهم من الشرق، ولإتمام مشروع والده سليم الأول في التوغل داخل الأراضي الفارسية وضمها لأملاك سلطنته وتقويض أركان الدولة الصفوية.

غير أن أهداف السلطان سليمان التوسعية في شرق أوربا ووسطها جعلته يقدم النشاط في الجبهة الغربية على حساب الشرقية، حيث توجه في خريف سنة 1529م إلى فيينا لفتحها والتي حاصرها وفشل في ذلك[4]. وفي تلك الأثناء استغل الصفويون انشغال القانوني في وسط أوربا ليسيروا أول حملة عسكرية صفوية على العثمانيين في عهد الشاه طهماسب الأول كان هدفها استرجاع تبريز سنة 1529م[5].

ثم ولى الشاه أنظاره صوب العراق لاسترجاع بغداد من "ذو الفقار" حاكمها الخاضع للعثمانيين منذ ضمها لأملاكهم في أواخر سنة914هـ/ 1508م، والذي أدى للسلطان سليمان فروض الولاء والطاعة وأعلن استقلاله تحت حماية السلطان في معظم أجزاء العراق حيث خطب لسليمان في المنابر وصك العملة باسمه سنة 931هـ/1524م[6].

وجه الشاه طهماسب الأول حملة إلى بغداد وحاصرها عدة أسابيع واستطاعت قواته الدخول إليها سنة 937هـ/1530م وعين "محمد بكلو خان" واليا عليها، وبالتالي خضع العراق مرة أخرى للسيطرة الصفوية.

ثم توالت حملات الاسترجاع الصفوية لمحو آثار هزيمة جالديران حيث خرج "شرف خان" حاكم "بتليس"[7] عن طاعة السلطان العثماني متعاونا مع الصفويين، كما حاول حاكم إقليم "أذربيجان" التمرد على السلطة العثمانية عام 938هـ/1531م[8].

وإزاء هذه التطورات والاستفزازات الصفوية بين سنتين 1524م-1532م لم يقف السلطان سليمان مكتوف الأيدي، بل أعد حملة كبيرة للتوجه شرقا بقيادة الصدر الأعظم "ابراهيم باشا" سنة 940هـ/1533م، حيث سارت الحملة الى قونية ومنها الى حلب أين أمضت الشتاء هناك، وفي بداية سنة 1534م تابع الجيش السير الى ديار بكر ثم "وان **VAN**"[9]، ففتح القلاع المحيطة بها باعتبارها بوابة للتوغل في الأراضي الإيرانية بداية من "خوي" التي دخلتها الحملة العثمانية ومنها استرجع الجيش العثماني تبريز مرة ثانية والتي استسلمت دون حرب بتاريخ 01 محرم 941هـ الموافق لـ 13 جويلية 1534م، حيث دخلها "ابراهيم باشا" وجعل الحامية العثمانية في وسطها ليضمن الهدوء والاستقرار بالمدينة[10].

وكان السلطان سليمان قد تحرك بجيش آخر قاصدا تبريز أيضا عبر طريق: اسطنبول- قونية- قيصرية- سيواس- أرضروم- وان- خوي- فتبريز، هذه الأخيرة التي دخلها في 27 سبتمبر 1534م الموافق لـ 16 صفر 941هـ، وأقام بها فترة وجيزة قاصدا سلطانية التي كان الشاه طهماسب قد تراجع إليها، غير أن صعوبة تضاريسها وكثرة الأمطار والأوحال أعاقت تقدم المدافع الكبيرة والعربات فقفل راجعا منها متوجها إلى بغداد لفتحها ثانية فدخلها بتاريخ 24 جمادي الثاني 941هـ الموافق لـ 31 ديسمبر 1534م، حيث أقام فيها أربعة أشهر رتب فيها أمورها الداخلية وأعطى صبغة دينية على دخوله من خلال زيارته لقبور ومشاهد الأئمة من آل البيت في النجف وكربلاء ومنها أرسل خطاباته ورسائل الى

ملوك وأمراء أوربا " البندقية– فيينا" معلنا انتصاره على الشاه طهماسب ودخوله تبريز وبغداد[11].

وقد اشتغل الشاه طهماسب المنهزم في تبريز، فرصة انشغال السلطان سليمان في العراق ليجهز حملة عسكرية يقودها "رستم باشا" ويشن غارات على الدولة العثمانية ومكتسباتها في إيران حيث استعاد مدينة تبريز في 09 جانفي 1534، فاضطر السلطان سليمان إلى الرجوع ثانية من بغداد إلى تبريز واستعادتها بدون حرب أيضا لما خرج منها الشاه طهماسب الذي أبدى رغبته في عدم الاحتكاك العسكري ثانية مع العثمانيين، ولكنه سرعان ما استعادها بعد خروج السلطان سليمان راجعا الى اسطنبول[12].

دخول العثمانيين الى تبريز مرة ثالثة:

لقد ظلت قصة الهروب من طرف واللجوء إلى الطرف الآخر التي كان غالبا ما يقوم بها أفراد من البيت الحاكم والأمراء وحكام الأقاليم من الدولة العثمانية والصفوية، من الأسباب التقليدية لقيام الصراع والتوتر والحروب بين الطرفين.

حيث كان من أسباب قيام حرب جالديران سنة 1514 هروب ابن أخ السلطان سليم إلى الشاه إسماعيل، أما في عهد طهماسب فقد التجأ أخوه القاص ميرزا [13]سنة 1537م إلى العثمانيين، حيث كان حاكما لولاية شيروان فرأى السلطان سليمان القانوني الفرصة مناسبة للكرة للمرة الثالثة على تبريز واستعادة نفوذه في أذربيجان من جهة وتحقيق مصالح استراتيجية من جهة أخرى من بينها:

– استعادة تبريز كنقطة استراتيجية على طريق الحرير الدولي خدمة للمصالح الاقتصادية للدولة العثمانية.

– السيطرة على شيروان كنقطة استراتيجية لوصل منطقة القوقاز بأرضروم.

– وضع يده على الكميات الكبيرة التي تنتجها شيروان من الحرير فهي أهم المناطق المنتجة له في ايران[14].

حاول السلطان سليمان استغلال فرصة انقسام البيت الصفوي بوجود القاص ميرزا إلى جانبه لإكمال مشروعه ومشروع أبيه السلطان سليم القائم على التوسع في عمق الهضبة الإيرانية، فأعد حملة عسكرية ضخمة قادها هو بنفسه قاصدا الشرق، حيث سار إلى شيروان ودخلها منتصرا وجعل "علي سليمان بن خليل" واليا عليها وبإلحاح من القاص ميرزا أخو الشاه طهماسب توجه السلطان سليمان إلى تبريز ليدخلها للمرة الثالثة في 956هـ/1549م بعد اشتباك الجيشين قربها، حيث جعل التفوق العثماني الشاه طهماسب يفر الى مدينة "أهر" تاركا تبريز تسقط بيد العثمانيين الذين لم ينعموا فيها كثيرا حيث جوبهوا بهجومات القزلباش المتتالية ،الأمر الذي عجل بانسحاب السلطان سليمان منها.

وبعد معركة تبريز الثالثة استؤنفت الحرب بين الطرفين في مواجهة أرضروم العنيفة سنة 1553م والتي أبان فيها الصفويون نوعا من القوة والتنظيم، حيث استفادوا من حملة التجييش الطائفي التي قادها الشاه طهماسب بدعوة الناس للدفاع عن المذهب الشيعي الاثنا عشري من العثمانيين.

كما جرت عمليات عسكرية واسعة بين الطرفين في ربيع سنة 1553م فتح من خلالها العثمانيون (روان– نهجوان– ايروان– قراباغ) واجتازوا أذربيجان ليضيقوا بذلك على حدود الشاه، كما استعاد الصفويون من جهتهم "شيروان" وأجزاء من أرمينيا كأخلاط وأرغيش وتغلبوا على اسكندر باشا حاكم ولاية أرزن العثمانية وذلك بقيادة إسماعيل ميرزا أخو الشاه[15].

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن الصراع العثماني الصفوي في عهد الشاه طهماسب والسلطان سليمان القانوني قد أصبح عبارة عن حرب استنزاف متواصلة أنهكت قوة الطرفين، حيث أن السلطان سليمان وجيشه قد تكبدوا عناء المسير إلى تبريز وايران أكثر من أربع مرات رغم صعوبة المناخ والتضاريس وبعد المسافة من الآستانة إلى تبريز[16]، كما أن الحرب الدائمة مع العثمانيين قد قزمت من قوة طهماسب وطموحاته ومن هنا برزت الرؤية وتوضحت للطرفين بضرورة إيجاد حل سلمي لهذا الصراع ولو مؤقتا[17].

بوادر السلام 1555م–1576م:

شكل أسر القائد العثماني "سنان باشا"[18] أعظم قادة السلطان سليمان القانوني في معارك أرضروم ضد الصفويين، ضربة قوية للدولة العثمانية اضطر من خلالها السلطان سليمان إلى قبول الدعوة إلى الصلح التي كان الشاه قد أرسلها له وبالتالي عجل أسر سنان باشا وقسوة المعارك بين الطرفين في عقد صلح أماسيا 1555م .

وقد كان من نتائج صلح أو معاهدة أماسيا أن دب الهدوء والاستقرار في العلاقات بين البلدين لأكثر من 20 سنة، حيث اعتبر عام 1555م بداية لعهد جديد في العلاقات الصفوية العثمانية يمكن أن نسميه بعهد المجاملات[19]، استمر الى غاية وفاة السلطان سليمان القانوني سنة 1566م، حيث أن الشاه طهماسب وعند اعتلاء السلطان سليم الثاني 1566م–1574م لعرش الدولة العثمانية بعث رسالة تهنئة مطولة بلغ طولها السبعين صفحة وقام أيضا بزيارة للعتبات المقدسة لدى الشيعة في كربلاء وهي تحت السلطة العثمانية عدة مرات كان آخرها سنة 1571م.

كما أن الشاه طهماسب قد احترم بنود المعاهدة "أماسيا" من خلال رفضه لعروض التحالف العسكري التي جاءته من عند البنادقة سنة 1570م بعد فتح العثمانيين لقبرص، حيث جاءه وفد رفيع المستوى لهذا الشأن فرفض رفضا قاطعا احتراما منه لعهود الصداقة والسلام التي تربطه بالسلطان العثماني آنذاك سليم الثاني والذي بوفاته تسلم العرش السلطان مراد الثالث 1574م–1595م/ 982هـ–1004هـ فأرسل له طهماسب وفدا رفيعا مع هدايا ثمينة معزيا إياه في وفاة السلطان سليم الثاني ومهنئا له باعتلائه للعرش العثماني[20].

3. معاهدة أماسيا 963هـ/1555م من الحرب إلى السلام.

1.3. ظروفها وحيثياتها.

جرت هذه المعاهدة في عهد الشاه طهماسب الأول 1524م/1576م في الدولة الصفوية وعهد السلطان سليمان القانوني 1520م/1566م في الدولة العثمانية.

وتعود جذور عقد هذه الاتفاقية إلى فتنة القاص ميرزا ابن الشاه إسماعيل الأول والذي كان واليا على شيروان منذ استيلاء الصفويين عليها سنة 1538م، حيث إنه لم يكن على وفاق مع أخيه الشاه طهماسب الأول فأعلن عصيانه له واستقلاله بشيروان[21].

وبدوره هيأ الشاه طهماسب نفسه لاسترجاع سيطرته ونفوذه على شيروان لكونها موردا رئيسيا للحرير إضافة لموقعها الاستراتيجي بين القوقاز[22] وايران، كما أن العثمانيين في تلك الفترة قد كانوا في أقصى درجات القوة والازدهار وبالتالي تكون مبادرة القاص ميرزا مشجعا لهم في صراعهم الشرقي.

وبالفعل فقد لجأ ميرزا للبلاط العثماني ووجد السلطان سليمان الفرصة مناسبة لتحقيق مشروعه الهادف لضم الهضبة الإيرانية وأطرافها، لكن السلطان سليمان رغم دخوله لتبريز فقد فشل كوالده سليم الأول في التعمق بالأراضي الايرانية.

فكان لفتنة القاص ميرزا ومحاولات السلطان سليمان للسيطرة على إيران بعدها نتائج إيجابية عكسية على الدولة الصفوية أهمها، نقل الشاه للعاصمة سنة 1552م من تبريز إلى قزوين لإبعادها عن الحملات العثمانية المتلاحقة والتي كان آخرها حملة سليمان على تبريز واستلائه عليها بالتعاون مع القاص ميرزا، إضافة إلى ازدياد التفاف الزعماء الصفويين والقادة القزلباش حول شخصية الشاه باعتباره حامي البلاد والمذهب من التحرشات العثمانية.

وبذلك أعاد طهماسب الأول الاعتبار لدولته وجيشه وازدادت سلطته وسطوته الداخلية وهو ما استشعره الطرف العثماني رغم كونه هو الآخر في ذروة قوته ومجده أيام السلطان سليمان القانوني، فيمكن اعتبار التوازن في القوة وتماسك الجبهة الداخلية ظرفا رئيسيا وعاملا أساسيا عجل باتجاه عقد الطرفين لمعاهدة سلم بينهما.

وقد بدأت بوادر إقامة الصلح بين القوتين بعد قيام القوات العثمانية بثلاث حملات متتالية على إيران أيام السلطان سليمان القانوني واقتناعه بصعوبة التوغل في العمق الإيراني رغم الانتصارات الظرفية ودخول تبريز لعدة مرات[23].

ولكل أهدافه في السعي لإقامة الصلح حيث يمكن حصرها في مجموعة من الدوافع بالنسبة للطرفين.

2.3. الدوافع العثمانية للصلح:

-الرغبة في تهدئة الجبهة الشرقية خاصة بعد تحقيق أهداف استراتيجية فيها مثل السيطرة على مصر والحجاز وبلاد الشام 1516م- 1517م، والسيطرة على العراق سنة 1534م وتثبيت القواعد في التخوم الشرقية للأناضول مثل فان وديار بكر وأرضروم وقارص.

-طموحات السلطان سليمان القانوني الكبيرة في وسط أوربا وسعيه لدخول فيينا وما بعدها فأراد بذلك التفرغ لهذا المشروع الاستراتيجي بالجبهة الغربية.

-رغبة الدولة العثمانية في حماية المقدسات الإسلامية والحرمين الشريفين من الأطماع البرتغالية في الخليج والاسبانية في المغرب الإسلامي.

-ضغط رجال الدين والعلماء على السلطان العثماني من أجل وقف التجاوزات الصفوية في حق الخلفاء الراشدين الثلاثة " أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم".

-محاولة قطع الطريق أمام الاتصالات التي كانت تجريها القوى الأوربية (البرتغال والمجر) مع الصفويين لإقامة تحالفات ضد الدولة العثمانية.

-اقتناع العثمانيين باستحالة القضاء النهائي على الدولة الصفوية.

3.3. الدوافع الصفوية للصلح :

-الرغبة في تهدئة الجبهة الغربية للتفرغ للجبهة الشرقية ممثلة في خطر الأوزبك الشيبانيين.

-استنزاف الحملات العثمانية المتتالية للقوة الصفوية وطول مدة المواجهات والحروب منذ جالديران سنة 1514م.

-السعي لإيقاف التوسعات العثمانية في الشرق وهم في ذروة قوتهم خاصة بعد خسارة الصفويين للعراق والتخوم الأناضولية.

-رغبة الشاه طهماسب الأول في التفرغ لمشكلات البلاد الداخلية وتحقيق تماسك الجبهة الداخلية.

-اقتناع الصفويين بعدم جدوى العداء الدائم والمواجهة الدائمة مع العثمانيين.

أما السبب المباشر لعقد المعاهدة فهو عنف العمليات العسكرية وقساوتها في المواجهات التي جرت بين الطرفين سنة 1553م /960هـ واقتناع الطرفين بأن هذه الحرب قد تدوم لمدة لا نهاية لها وبنتيجة واحدة هي الخراب للطرفين[24]، وكان المبادر لطلب السلم هو الشاه طهماسب الأول غير أن السلطان سليمان رفض طلبه في البداية، ولكن سرعان ما اضطر لقبول ذلك الصلح بسبب أسر أعظم قادته وهو " سنان باشا" في إحدى المعارك مع الصفويين[25].

حيث عرض عليه الصدر الأعظم "محمد باشا" مسألة عقد صلح وسلام مع الصفويين بشرط إطلاقهم لسراح القائد سنان باشا، فعرض العثمانيون أمر الصلح على الشاه طهماسب الأول فقبل به لكونه السباق في طلبه وأنه في أمس الحاجة إليه فأرسل الشاه مبعوثه وهو "شاه قولي" زعيم قبيلة قاجار التركمانية إلى مدينة أماسيا حيث معسكر السلطان[26].

وبعد مداولات بين الطرفين ونظرا لكون الظروف مهيأة لعقد معاهدة صلح تعد الأولى من نوعها في العلاقات العثمانية الصفوية، تم الاتفاق عليها رسميا بتاريخ 8 رجب 962هـ/29 ماي 1555م وسميت نسبة للمكان الذي عقدت فيه بمعاهدة أماسيا.

4.3. مضمونها:

لقد توصل العثمانيون والصفويون إلى أول معاهد صلح رسمية بينهما[27]، وذلك بالاتفاق على جملة من المسائل الخلافية والتي كانت تثير الحرب والتوترات أهمها مسألتي الحدود والخلافات المذهبية وقد تم الاتفاق في أماسيا على مجموعة من النقاط أبرزها:

- تقسيم مناطق الصراع بين القوتين كالآتي: للدولة العثمانية أذربيجان الغربية وأرمينيا الغربية وكرجستان "جورجيا" الغربية، وتعترف الدولة الصفوية بالسيادة العثمانية على العراق،

وللدولة الصفوية أذربيجان الشرقية وأرمينيا الشرقية وكرجستان "جورجيا" الشرقية، وتكون ولاية قارص بمثابة فاصل بين الدولتين باعتبارها تابعة للدولة العثمانية[28].

– تحرير حدود ولاية شهرزور حتى يمنع حدوث ما يعكر الصفو والهدوء والأمن على حدود الدولتين[29].

– تعهد العثمانيين بحماية الحجاج الإيرانيين وتوفير الأمن والسلامة لهم في رحلاتهم إلى الحجاز للحج، أو رحلاتهم إلى العراق والشام لزيارة العتبات المقدسة "النجف وكربلاء والكاظمية في العراق ومقام السيدة زينب في سوريا"[30].

– عدم إيواء الفارين من الدولتين مع وجوب تسليمهم.

لم تتضمن معاهدة أماسيا بنودا كثيرة وانما اكتفت بحل ظرفي للمشاكل القائمة آنذاك بين القوتين العثمانية والصفوية .

4. نتائج وانعكاسات معاهدة أماسيا على مسار علاقات البلدين:

بموجب اتفاقية السلام العثمانية الصفوية في أماسيا سنة 1555م ساد الهدوء والاستقرار في العلاقات بين القوتين لأكثر من ربع قرن رغم وقوع بعض الحوادث التي كادت أن تعصف بهذا السلام الهش بين الطرفين[31].

وقد بينت بنود معاهدة أماسيا مجموعة من الحقائق في الصراع الذي كان قائما بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية من خلال آثارها والتي أهمها:

1–سعي الدولة العثمانية لتأمين حدودها في شرقي الأناضول بإطباق سيطرتها على حصن قارص باعتباره منطقة استراتيجية لمواجهة أي عدوان شرقي محتمل.

2–أن مشكلة الأطراف والحدود كانت مثار الأزمات الطويلة والمعقدة في مسار العلاقات بين الدولتين.

3–أخطر مناطق الصراع بين القوتين كان في حدودهما الشمالية الشرقية بالنسبة للعثمانيين والغربية بالنسبة للصفويين وهي مناطق تواجد الأكراد.

4-أدى اقتسام المناطق المتنازع عنها في الأطراف، إلى حصول الصفويين على الجهات الغربية منهم مؤمنين بذلك حدودهم الشرقية، وحصولهم على مصدر هام للمداخيل في مناطق انتاج الحرير التي أصبحت من نصيبهم.

5-استفاد العثمانيون استراتيجيا من هذه المعاهدة من خلال عدة أوجه: أولا حصلوا على مركز تجمع الحرير الايراني بسيطرتهم على تبريز كما أمنوا لمصالحهم الطريق الدولي عبر محور" تبريز – بورصة" و"تبريز– حلب".

6-اتساع نفوذ العثمانيين في تجارة المحيط الهندي وفي الخليج العربي بسيطرتهم على العراق منذ سنة 1534م واعتراف الصفويين بها في أماسيا سنة 1555م[32].

لم تهمل معاهدة أماسيا الصراع المذهبي والعقائدي الذي كان بين القوتين، حيث أن الصفويين قد أكدوا على ضرورة حماية الحجاج الإيرانيين والسماح لهم بالتوجه إلى الأماكن المقدسة في الحرمين الشريفين وللعتبات المقدسة لدى الشيعة في العراق والشام، حيث كان الإيرانيون قد توقفوا عن زيارتها إثر الحروب والمواجهات العسكرية التي قامت بين الطرفين لما يشكله ذلك من خطر على حياتهم وممتلكاتهم في ظل الاحتقان الطائفي الذي ساد بين القوتين باسم "سنة – شيعة" منذ عهد الشاه إسماعيل الأول 1501-1524م والسلطان سليم الأول 1512-1520م.

غير أن المسألة الكردية قد ظلت عالقة بين الطرفين رغم وجود ما يشير إلى حلها في بنود أماسيا الى أنها قد بقيت في إطارها النظري وبعيدة عن تجسيدها في واقع الميدان، نظرا لتذبذب الولاءات الكردية لأحد الطرفين[33].

وعلى العموم اعتبرت معاهدة أماسيا 963هـ/1555م بداية لعهد جديد في العلاقات العثمانية الصفوية في عهد الشاه طهماسب الأول 1524م-1576م والسلطان سليمان القانوني 1520م-1566م، حيث أن هذا الأخير تلقى رسالة تهنئة من الشاه بمناسبة إكمال بناء جامع السليمانية الكبير في اسطنبول، يتعهد فيها بفرشه بالسجاد الإيراني الفاخر وتزيينه بالفنون الإيرانية الرائدة آنذاك[34].

وقد بقيت العلاقات على هذا المنوال الودي طيلة الفترة اللاحقة لعقد المعاهدة وإلى غاية وفاة الشاه طهماسب الأول في ماعدا حادثة لجوء الأمير بايزيد بن سليمان القانوني إلى البلاط الصفوي والتي تم احتوائها بين الطرفين من أجل الحفاظ على مكتسبات أماسيا 1555م.

أما تفصيل هذه الحادثة فهو أن السلطان سليمان القانوني قرر سنة 1559م/966هـ أن يجري حركة نقلية لحكم ابنيه وذلك بأن يتبادلا الإمارة بحيث يتولى بايزيد حكم قونية ويتولى سليم الثاني حكم أماسيا، ففهم الأمير بايزيد من هذه الحركة أن أباه سيولي بعده سليم فثار بايزيد وحارب أخاه سليم فانهزم أمامه بدعم من سليمان القانوني لسليم، ففر الأمير بايزيد إلى البلاط الصفوي مستنجدا بالشاه طهماسب الأول حيث وصل إلى عاصمته قزوين في 1559/11/24م[35].

أكرم الشاه طهماسب الأول الأمير بايزيد واستقبله استقبالا حسنا ليكون ورقة يساوم بها السلطان سليمان القانوني ويعزز موقعه ومكتسباته في أماسيا 1555م ويزيد عليها، فقام الشاه بمراسلة السلطان سليمان عن طريق مبعوثه "علي آغا المحارب" حتى يشفع لبايزيد فرفض السلطان ذلك.

وفي مقابل ذلك أرسل السلطان سليمان القانوني مبعوثين الى الشاه هما (علي باشا يوزباشي وحسن آغا بوجي باشي) ومعهما الهدايا من أجل التأكيد على المحافظة على صلح أماسيا واجتناب قيام حرب بينهما[36]، فرد الشاه على هذه الإرسالية بسفارة يطلب من خلالها حكم ولاية بغداد للصفويين في مقابل موافقته على المحافظة على بنود أماسيا، رفضها العثمانيون فأردفها الشاه بمراسلة أخرى سنة 968هـ/1560م يطلب فيها إمارتي النجف وكربلاء مقابل تسليم بايزيد، قوبلت بالرفض هي الأخرى ثم بعث الشاه سفارة ثالثة يطلب فيها تعديل معاهدة أماسيا أو إجراء صلح جديد، وقوبلت هي الأخرى بالرفض العثماني[37].

ولم يتم تسوية هذه القضية إلا في سنة 1561م لما وصل إلى قزوين العاصمة الصفوية وفد عثماني كبير اتفق مع الشاه على هدم العثمانيين لقلعة قارص وإبقاء معاهدة

أماسيا سارية المفعول، مقابل تسليم الصفويين لبايزيد والفارين معه وهو ما حدث فعلا حيث تم استلامهم من قبل وفد السلطان وقتلهم قرب قزوين ودفنهم في سيواس[38].

لقد تم تجاوز هذه القضية الخلافية التي كادت أن تشعل الحرب مرة أخرى بين الطرفين لو لم يتم احتوائها، وقد استمرت العلاقات ودية بين الطرفين بعدها حيث تواصلت المفاوضات حول أماسيا إلى غاية سنة 1562م لما أرسل السلطان سليمان وفدا إلى الشاه يؤكد فيها على المعاهدة وسلمه وثيقة بها المصادقة الرسمية على بنودها، كما أرسل الشاه بدوره إلى السلطان نصف مليون مسكوكة ذهبية و40 حصانا أصيلا وهدايا أخرى عديدة تعبيرا على الصداقة والاحترام المتبادل، كما كان يرسل برقيات تهاني متتالية بمناسبة الانتصارات التي كان يحققها السلطان سليمان القانوني في أوربا[39].

وقد استمرت العلاقات الودية كآثار إيجابية لمعاهدة أماسيا طيلة عهد الشاه طهماسب الأول 1524م-1576م الذي رفض عرض من البندقية للتحالف ضد العثمانيين، حيث تبادل رسائل التهاني والمجاملات الدبلوماسية مع سليم الثاني 566م-1574م خليفة السلطان سليمان القانوني.

وبوفاة الشاه طهماسب سنة 1576م ووصول الشاه محمد خدابنده لسدة الحكم مباشرة بعد السنة التي حكم فيها إسماعيل الثاني 1576م-1577م، وبروز الاضطرابات داخل البيت الصفوي الحاكم واستغلال السلطان مراد الثالث 1574م-1595م لهذه الظروف انتهت فترة الهدوء والاستقرار في العلاقات بين القوتين.

5. خاتمة:

لقد تميزت السنوات الأخيرة من حكم الشاه طهماسب بعد أماسيا 1555م-1576م بالاستقرار والهدوء في علاقاته العثمانية حيث بقي وفيا لبنود معاهدة أماسيا إلى غاية وفاته يوم الثلاثاء 15 صفر 984هـ الموافق لـ 14 ماي 1576م عن عمر يناهز الأربع وستين عاما وحكم دام 53 سنة[40].

حيث يعد الشاه طهماسب أكثر الشاهات الصفويين من حيث فترة الجلوس على العرش لـ 53 سنة رغم أنه لا يقارن مع والده الشاه إسماعيل من حيث الانجازات والتوسعات والكفاءة، إلا أنه استطاع المحافظة على كيان دولته وصد العديد من هجمات أعدائها وخاصة العثمانيين في بدايات حكمه[41]، ونذكر هنا أن اهتمام الشاه بالمؤسسات الحكومية وخاصة المؤسسة الدينية منها ودعمها وتقويتها كان له أثر كبير على المجتمع الإيراني وخاصة مع طول فترة حكمه لأكثر من نصف القرن[42].

غير أن الاهتمام الكبير بالمؤسسة الدينية الشيعية في عهد طهماسب كان له بعض الآثار السلبية من حيث العلاقة مع الغريم التقليدي (العثمانيين)، وذلك بفعل تزايد الكراهية والعداء المذهبي من خلال الاجراءات التي اتخذها الشاه من الناحية المذهبية والتي أذكت الحماس المذهبي وثبتت عقيدة العداء للسنيين من طرف الصفويين وبالتالي العداء للدولة التي تمثلهم وهي الدولة العثمانية ومن جملة هذه الإجراءات نذكر :

– تعيين كبار المستشارين من رجال الدين الشيعة وتقريبهم إليه والأخذ بآرائهم واستشارتهم في الأمور كلها وكان أبرزهم عبد الله الشوشتري وميرزا خان الشيرازي.

– دعم نشر كتب الصفويين الأوائل وإعادة تنقيحها بما يخدم تعظيم جده الأول صفي الدين وأحفاده وإثبات نسبهم للإمام الحسين بن علي.

–أطلق على نفسه اسم طهماسب الصفوي الحسيني الموسوي وذلك بهدف الترويج للتشيع وغرسه في النفوس وتأكيد صبغة دولته الشيعية[43].

وقد تسببت مجموعة من العوامل في استئناف الصراع والمواجهة بين العثمانيين والصفويين بعد وفاة الشاه طهماسب الأول من بينها، وصول الشاه محمد خدابنده للحكم 1578م–1588م المعروف بعدائه للعثمانيين، أضافة إلى انهيار السلطة المركزية في الدولة الصفوية وانتشار الفوضى في البلاد .

كما ساهمت الرغبة العثمانية كذلك في استغلال هذه الظروف المواتية لتحقيق توسعاتهم في الأراضي الصفوية، بسبب الحاجة العثمانية لموارد اقتصادية إضافية والتي توفرها

مناطق إنتاج الحرير الإيرانية، كتعويض عن خسارة معركة ليبانت 979هـ/1571م المادية والمعنوية[44].

أما العامل المباشر لاستئناف المواجهة العسكرية بين العثمانيين والصفويين بعد هدوئها قرابة الربع قرن (23 سنة) 1555م-1578م فهو تعرض إحدى القوافل التجارية العثمانية للنهب في الأراضي الصفوية مما اعتبره العثمانيون إعلانا للحرب من طرف الجار الغريم[45].

6. الهوامش:

[1] طهماسب الأول (بالفارسية:شاه تهماسب يكم) هو أحد شاهات إيران الصفويين الأقوياء حكم خلفاً لأبيه إسماعيل الأول ولد في 22 فيفري عام 1514م وتوفي في 14 ماي عام 1576م، حكم بين سنتي 1524-1576، وخلال فترة حكمه تعرضت الدولة الصفوية إلى العديد من الأخطار الخارجية وخصوصاً من قبل العثمانيين في الغرب والأوزبك في الشرق (أنظر: عباس إقبال اشتياني، **تاريخ إيران بعد الإسلام**، ترجمة: محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص648).

[2] عباس إسماعيل صباغ، **تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية**، دار النفائس، بيروت، ط1، 1999، ص128، ص135.

[3] باسم حمزة عباس، "إيران في عهد الشاه طهماسب الأول الصفوي 1576/1524"، **مجلة الخليج العربي**، جامعة البصرة، العراق، المجلد 40، العدد(1-2)، 2012، ص6.

[4] فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العثمانية العلية**، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1981، ص216-217.

[5] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص135.

[6] باسم حمزة عباس، المرجع السابق، ص7.

[7] مدينة بتليس أو بدليس هي إحدى محافظات تركيا تقع في منطقة شرق الأناضول بالقرب من الحدود مع إيران غالبية سكانها من الأكراد.

[8] نفسه، ص8.

[9] مدينة هامة على الحدود التركية الإيرانية ينسب اسمها إلى بحيرة فان الكبرى تحتوي على عدة قلاع وحصون عثمانية تم بنائها لمواجهة الضربات والغارات الصفوية .

[10] فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص222.

[11] نفسه، ص223.

[12] محمد سهيل طقوش، **تاريخ الدولة الصفوية في إيران 1501/1736**، دار النفائس، بيروت، ط1، 2009، ص98.

[13] القاص ميرزا من أمراء الدولة الصفوية وهو إلى جانب ذلك أديب وشاعر وهو أخ الشاه طهماسب الأول تسبب في أزمة دبلوماسية بين العثمانيين والصفويين بلجوئه إلى اسطنبول فارا من حكم أخيه.

[14] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص139.

[15] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 100.

[16] من كثرة الغارات العثمانية على تبريز عاصمة الصفويين نقل الشاه طهماسب الأول عاصمته إلى قزوين سنة 1552م/960هـ لبعدها نوعا ما عن الحدود العثمانية.

[17] باسم حمزة عباس، المرجع السابق، ص 12.

[18] سنان باشا (1506 –1596) رجل دولة وقائد عسكري عثماني من أصل ألباني سمي حاكما على مصر سنة 1569، قاد سنة 1574 الحملة العثمانية على تونس التي شكلت نهاية الاحتلال الإسباني للبلاد وبداية الحقبة العثمانية بها.

[19] جرت عدة اتصالات ايجابية ومراسلات وتبادل للهدايا بين الشاه طهماسب والسلطان سليمان كمظهر للهدنة بين الطرفين .

[20] باسم حمزة عباس، المرجع السابق، ص 16.

[21] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص179.

[22] القوقاز أو القفقاز أو القفقاس منطقة استراتيجية بين أوربا وآسيا يحدها من الشمال روسيا ومن الغرب البحر الأسود وتركيا ومن الشرق بحر قزوين ومن الجنوب إيران تضم حاليا أرمينيا وجورجيا وأذربيجان (أنظر: أطلس العالم، **الدار العربية للعلوم**، بيروت، ط1، 2005، 85).

[23] محمد عبد اللطيف هريدي، **الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الاسلامي على أوربا**، دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1987، ص 65.

[24] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص100.

[25] باسم حمزة عباس، المرجع السابق، ص 12.

[26] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص181.

[27] أحمد رضا خضري وآخرون، "دور إمارة أردلان في الصراع الصفوي العثماني"، **مجلة العلوم الانسانية الدولية**، العدد 19، 2012، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة طهران، ص 21.

[28] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 101.

[29] حسان حلاق، **مدن وشعوب إسلامية**، دار الراتب الجامعية، سوفنير، ج4، ص 426.

[30] محمد عبد اللطيف هريدي، المرجع السابق، ص65.

[31] نفسه، ص65.

[32] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 102.

[33] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص 182.

[34] باسم حمزة عباس، المرجع السابق، ص14.

[35] يلماز اوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة: عدنان محمود سلمان، منشورات مؤسسة فيصل للتموين، إسطنبول، 1988، ج1، ص351.

[36] باسم حمزة عباس، المرجع السابق، ص 14.

[37] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 103.

[38] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص 184.

[39] باسم حمزة عباس، المرجع السابق، ص 15.

[40] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 108.

[41] نفسه، ص109.

[42] باسم حمزة عباس، المرجع السابق، ص 39.

[43] محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 109.

[44] نفسه، ص 120.

[45] عباس إسماعيل صباغ، المرجع السابق، ص186.

7. قائمة المراجع:

1- اشتياني عباس إقبال ، **تاريخ إيران بعد الإسلام**، ترجمة: محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

2- أطلس العالم، **الدار العربية للعلوم**، بيروت، ط1، 2005.

3- اوزتونا يلماز ، **تاريخ الدولة العثمانية**، ج1، ترجمة: عدنان محمود سلمان، منشورات مؤسسة فيصل للتموين، إسطنبول، 1988.

4- حلاق حسان ، **مدن وشعوب إسلامية**، ج4، دار الراتب الجامعية، سوفنير.

5- خضري أحمد رضا وآخرون، "دور إمارة أردلان في الصراع الصفوي العثماني"، **مجلة العلوم الانسانية الدولية**، العدد 19، 2012، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة طهران.

6- صباغ عباس إسماعيل ، **تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية**، دار النفائس، بيروت، ط1، 1999.

7- طقوش محمد سهيل ، **تاريخ الدولة الصفوية في إيران 1736/1501**، دار النفائس، بيروت، ط1، 2009.

8- عباس باسم حمزة، "إيران في عهد الشاه طهماسب الأول الصفوي 1576/1524"، **مجلة الخليج العربي**، جامعة البصرة، العراق، المجلد 40، العدد(1-2)، 2012.

9- المحامي فريد بك ، **تاريخ الدولة العثمانية العلية**، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ط1، 1981.

10- هريدي محمد عبد اللطيف ، **الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الاسلامي على أوربا**، دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1987.